بسم الله الرحمن الرحيم

٦١ ـ سورة الصف

وتسمّى سورة (الحواريين) . وهى مدنية . ولا عبرة بقول إنها مكية ، لأن آياتها المحرّضة على القتال تردّه ، لأنه لم يشرع الجهاد إلا فى المدينة . وآيها أربع عشرة آية .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » أى أذعن لله كل خلقه العلوىّ والسفلىّ ، وانقاد لتسخيره ، ودلّ على ألوهيته وربوبيته . وتقدم بيانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[٣] (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ؟ » قال القاشانىّ: من لوازم الإيمان الحقيقىّ الصدق وثبات العزيمة . إذ خلوص الفطرة عن شوائب النشأة يقتضيهما . وقوله (لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟) يحتمل الكذب ، وخلف الوعد . فمن ادّعى الإيمان وجب عليه الاجتناب عنهما بحكم الإيمان ، وإلا فلا حقيقة لإيمانه . ولهذا قال :

« كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ » لأن الكذب ينافى المروءة التى هى من مبادئ الإيمان ، فضلًا عن كماله . إذ الإيمان الأصلىّ هو الرجوع إلى الفطرة الأولى ، والدين القيّم . وهى تستلزم أجناس الفضائل بجميع أنواعها، التى أقل درجاتها العفة المقتضية للمروءة ، والكاذب لا مروءة له ، فلا إيمان له حقيقة . وإنما قلنا : لا مروءة له ، لأن النطق هو الإخبار المفيد للغير معنى ، المدلول عليه باللفظ. والإنسان خاصته التى تميزه عن غيره، هى النطق ، فإذا لم يطابق الإخبار ، لم تحصل فائدة النطق ، فخرج صاحبه عن الإنسانية ، وقد أفاد ما لم يطابق من اعتقاد وقوع غير الواقع، فدخل فى حد الشيطنة، فاستحق المقت الكبير

عند الله ، بإضاعة استعداده ، واكتساب ما ينافيه من أضداده . وكذا الخلف ، لأنه قريب من الكذب ، ولأن صدق العزم وثباته من لوازم الشجاعة التى هى إحدى الفضائل اللازمة لسلامة الفطرة ، وأول درجاتها. فإذا انتفت انتفى الإيمان الأصلىّ بانتفاء ملزومه، فثبت المقت من الله . انتهى .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : هذا من أفصح كلام وأبلغه فى معناه . قصد فى (كَبُرَ) التعجب من غير لفظه . ومعنى التعجب تعظيم الأمر فى قلوب السامعين . وأسند إلى (أَن تَقُولُواْ) ، ونصب (مَقْتاً) على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص ، لا شوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه . واختير لفظ (المقت) لأنه أشد البغض وأبلغه، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً ، حتى جعل أشده وأفحشه . و (عند الله) أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته .

قال الناصر : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس ، وهو تكراره لقوله : (مالا تفعلون) وهو لفظ واحد ، فى كلام واحد . ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ)

« إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ » قال القاشانىّ : لأن بذل النفس فى سبيل الله لا يكون إلا عند خلوص النفس فى محبة الله ، إذ المرء إنما يحب كل ما يحب من دون الله لنفسه . فأصل الشرك ومحبة الأنداد ، محبة النفس . فإذا سمح بالنفس ، كان غير محب لنفسه ، وإذا لم يحب نفسه فبالضرورة لم يحب شيئا من الدنيا . وإذا كان بذله للنفس فى الله وفى سبيله لا للنفس ، كما قال ـ ترك الدنيا للدنيا ـ كانت

محبة الله فى قلبه راجحة على محبة كل شيء ، فكان من الذين قال فيهم :[1] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وإذا كانوا كذلك يلزم محبة الله إياهم ، لقوله :[2] (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ) انتهى.

تنبيهات :

الأول ـ فى ذكر هذه الآية عقيب مقت المخلف دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات فى قتال الكفار ، فلم يفوا . انتهى .

وأيده الناصر من الوجهة البيانية بأن الأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى[3] : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ) فالنهى العام ورد أولًا . والمقصود اندراج هذا الخاص فيه ، كما تقول للمقترف جرماً معيناً : لا تفعل ما يلصق العار بك ، ولا تشاتم زيداً . وفائدة مثل هذا النظم ، النهى عن الشيء الواحد مرتين ، مندرجاً فى العموم ، ومفرداً بالخصوص . وهو أولى من النهى عنه على الخصوص مرتين فإن ذلك معدود فى حيز التكرار ، وهذا يتكرر مع مافى التعميم من التعظيم والتهويل . انتهى

الثانى ـ فى (الإكليل) : قال إلكيا الهراسىّ ، يحتج بقوله تعالى : (لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ) فى وجوب الوفاء بالنذر ، ونذر اللجاج . قال غيره : والوعود . انتهى .

وقال ابن كثير : هو إنكار على من يعد وعداً ، أو يقول قولًا ، لا يفى به . ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم الموعود أم لا . واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت فى الصحيحين[4] ؛

(١) [٢/ البقرة/ ١٦٥]. (٢) [٥ / المائدة/ ٥٤]. (٣) [٤٩ / الحجرات/ ١و٢] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٢ ـ كتاب الإيمان ، ٢٤ ـ باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣١ ، عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٠٧ (طبعتنا) .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدّث كذب ، وإذا اؤتمن خان. ولهذا أكّد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى (كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

وقد روى الإمام أحمد[1] وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا صبيّ ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : ياعبد الله ! تعال أعطك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : تمراً . فقال : أما إنك لو لم تفعلي ، كُتبت عليك كذبة .

وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود ، وجب الوفاء به. كما لو قال لغيره : تزوّج ولك عليّ كل يوم كذا . فتزوّج . وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدميّ .

وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض، نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى[2] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) . وقال تعالى[3] (وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ . .) الآية ، وهكذا هذه الآية معناها كما قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين، قبل أن يفرض الجهاد ، يقولون : لوددنا أن الله عز وجل

أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤٤٧ من الجزء الثالث (طبعة الحلبيّ) .

(٢) [٤ / النساء / ٧٧] . (٣) [٤٧ / محمد / ٢٠] .

دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ، ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فأنزل الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقيل : كان المسلمون يقولون : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لأتيناه ، ولو ذهبت فيه أنفسنا وأموالنا ، فلما كان يوم أحد ، تولوا عن النبىّ ﷺ ، حتى شج وكسرت رباعيته ، فأنزل الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ﴾ روى ذلك عن مقاتل بن حيّان.

وقيل : نزل هذا توبيخاً لقوم من المنافقين كانوا يعدون المؤمنين النصر وهم كاذبون . يقولون : لو خرجتم خرجنا معكم ، وكنا فى نصركم ، وفى وفى . . . روى ذلك عن ابن زيد.

وكلّ المروىّ هنا مما تشمله الآية .

وقد روى الإمام أحمد[1] عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتى رسول الله ﷺ فيسأله : أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد ، فأرسل إلينا رسول الله ﷺ رجلًا فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ـ يعنى سورة الصف ـ كلها . ولفظ ابن أبى حاتم عن عبد الله ابن سلام ؛ أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ؛ فلم يذهب إليه أحد منا ، وهِبْنَا أن نسأله عن ذلك. قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر رجلًا رجلًا ، حتى جمعهم ، ونزلت فيهم هذه السورة ـ الصف ـ قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها.

وفى رواية ابن أبى حاتم هذه فائدة جليلة : وهى أن قول الصحابىّ نزلت هذه السورة ، بمعنى قرئت فى الحادثة ، كما تبيَّنته الرواية قبله . والروايات يفسر بعضها بعضاً . وقد نبهنا على ذلك مراراً.

الثالث ـ فى (الإكليل) فى قوله ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ : استحباب قيام المجاهدين فى القتال صفوفاً كصفوف الصلاة . وأنه يستحب سد الفرج والخلل فى الصفوف،

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٥٢ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

وإتمام صف الأول فالأول ، وتسوية الصفوف قدماً بقدم ، لا يتقدم بعض على بعض فيها .

قال ابن أبي الفرَس : واستدل بها بعضهم على أن قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان. لأن التراصّ إنما يمكن منهم . قال : وهو ممنوع . انتهى .

وفى التشبيه وجهان آخران :

أحدهما ـ أن يكون المراد الثبات ورسوخ الأقدام فى الموقف ، تنبيهاً على أن المتزلزل القدم، والمضطرب فى الموقف ـ دع من يعزم على الفرار ـ ممن يمقته الله تعالى ، ولا تناله محبته .

ثانيهما ـ أن يكون المعنىّ به اجتماع الكلمة ، والاتفاق على تسوية الشأن مع العدوّ ، حتى يكونوا فى الاتحاد وموالاة بعضهم بعضاً كالبنيان المرصوص . وقد أشار لهذين الوجهين الرازىّ . وهما أقرب من الأول ، لتقويتهما لمعنى طليعة السورة، من الثبات على الوعد والوفاء به ، والعتب على من يخلف فيه ، كما تقدم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ » أى لم توصلون إلىّ الأذى بالمخالفة والعصيان لما آمركم به ، وأنتم تعلمون علم اليقين صدق فيما جئتكم به من الرسالة ، لما شاهدتم من الآيات البينات ؟ ومقتضى علمكم ذلك ، تعظيمى وإطاعتى ، لأن من عرف الله وعظمته ، عظَّم رسوله ، لأن تعظيمه فى تعظيم رسوله .

قال ابن كثير : وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمرٌ له بالصبر . ولهذا قال صلوات الله عليه[1] : رحمة الله على موسى ! لقد أوذى بأكثر

(١) أخرى البخارىّ فى : ٥٧ ـ كتاب فرض الخمس ، ١٩ ـ باب ما كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يعطى المؤلَّفة قلوبهم ، حديث رقم ١٤٨٦ ، عن عبد الله بن مسعود .

من هذا فصبر . وفيه نهى للمؤمنين أن يوصلوا له ، صلوات الله عليه أذى ، كما قال تعالى[١] : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا) انتهى .

وقال أبو السعود : هذا كلام مستأنف ، مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال . و (إذ) منصوب على المفعولية بمضمر . خوطب به النبيّ ﷺ بطريق التلوين . أى واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال ، وقت قول موسى لبنى إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة ، بقوله[٢] (يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ) فلم يمتثلوا أمره ، وعصوه أشد عصيان ، حيث قالوا[٣] : (يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ) إلى قوله[٤] (فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ) وأصروا على ذلك وآذوه ، عليه الصلاة والسلام ، كل الأذية . هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم الكريم ، ويرتضيه الذوق السليم . وأما ماقيل بصدد بيان أسباب الأذية ، من أنهم كانوا يؤذونه بأنواع الأذى ، من انتقاصه وعيبه فى نفسه وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله جهرة ـ فما لاتعلق له بالمقام . انتهى ملخصاً . وملخصه : أن المقام يعيّن نوع الأذية ويخصصها ، والقرينة إحدى مخصصات العامّ ، إلا أن أخذها عامة أعظم فى التسلية وأولى ، وقوفاً مع عموم اللفظ الكريم .

« فَلَمَّا زَاغُوٓاْ » أى عن مقتضى علمهم لفرط الهوى ، وحب الدنيا « أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ » أى عن طريق الهدى ، وحجبهم عن نور الكمال ، لصرف اختيارهم نحو الغىّ والضلال . « وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ » أى الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق ، المصرّين على الغواية .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٩] . (٢) [٥ / المائدة / ٢١] . (٣) [٥ / المائدة / ٢٢] (٤) [٥ / المائدة / ٢٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ » أى التى أنزلت على موسى ، وذلك مما يدعو إلى تصديقه عليه السلام. « وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ » أى الدلالات التى آتاها الله إياه ، حججًا على نبوّته ، « قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ » أى بيّن .

والإشارة إلى ماجاء به أو إليه، عليه الصلاة والسلام ، وتسميته سحراً مبالغة. يريد عليه السلام : أن دينى التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ، ممن تقدم وتأخر .

تنبيهات :

الأول ـ نقل الرازىّ وغيره مصداق هـذه الآية من الإنجيل الموجود بين أيديهم . وذلك فى إنجيل يوحنا ، فى الباب الرابع عشر ، هكذا :

إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد ـ كما فى النسخة المطبوعة سنة ١٨٢١ و١٨٣١ و١٨٣٣ بمدينة لندن ـ وفارقليط يونانية ، ولفظها الأصلىّ (بيركلوط) ، ومعناه : محمد أو أحمد ، كما بينه صاحب (إظهار الحق) .

وذكرت جريدة المؤيد عدد (٣٢٨٤) صفحة (٢) تحت عنوان (لايعدم الإسلام منصفاً) :

وقال مسيو مارسيه من (مدرسة اللغات الشرقية) مايأتى :

إن محمداً هو مؤسس الدين الإسلامىّ ، واسم محمد جاء من مادة حمد. ومن غريب الاتفاق

أن نصارى العرب كانوا يستعملون اسما من نفس المادة يقرب فى المعنى من محمد ، وهو أحمد ، لتسمية البراكلية به . ومعنى أحمد صاحب الحمد ، وهـذا مادعا علماء الدين الإسلامىّ أن يثبتوا بأن كتب المسيحيين قد بشرت بمجىء النبىّ محمد . وقد أشار القرآن نفسه إلى هـذا بقوله عن المسيح : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) .

وقد قال اسبرانجيه : إن هذه الآية تشير إشارةخاصة إلى عبارة (إنجيل يوحنا) حيث وعد المسيح تلامذته ببعثة صاحب هذا الاسم . انتهى بالحرف .

وأما (إنجيل برنابا) ففيه العبارات الصريحة المتكررة ، بل الفصول الضافية الذيول ، التى يذكر فيها اسم محمد فى عرضها ذكراً صريحاً ، ويقول إنه رسول الله .

وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انكليزىّ أنه رأى فى دار الكتب البابوية فى الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبةبالقلم الحميرىّ قبل بعثة النبىّ ﷺ ، وفيها يقول المسيح: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) وذلك موافق لنص القرآن الكريم بالحرف . وقد بدل الرهبان نقط (الفارقليط) فى المطبوعات الأخيرة بـ(المعزّى) .

قال بعضهم : ولا عجب من هذه التحريفات المتجددة بتجدد الطبعات ، فإنها سجية القوم فى كتبهم المقدسة .

* سجيةٌ تلك فيهم غير محدَثةٍ *

(١)

الثالث ـ قال الإمام ابن القيّم فى (جلاء الأفهام) : الفرق بين محمدوأحمد من وجهين :

أحدهما ـ أن محمداً هو المحمود حمداً بعد حمد ، فهو دالّ على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه . و (أحمد) أفعل تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذى

(١) ملاحظة : ترك المؤلف هنا رحمه الله بياضاً قدرهصفحة وثلث الصفحة، وكأن هذا البياض خصص للتنبيه الثانى ، وقد انتقل إلى الدار الآخرة رحمه الله ، دون أن يملأه .

يستحقه أفضل مما يستحقه غيره . فمحمد زيادة حمد فى الكمية ، وأحمد زيادة فى الكيفية ، فيحمد أكثر حمد ، وأفضل حمد حمده البشر .

والوجه الثانى ـ أن محمداً هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم ، وأحمد هو الذى حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره . فدل أحد الاسمين ـ وهو محمد ـ كونه محموداً . ودل الاسم الثانى ـ وهو أحمد ـ على كونه أحمد الحامدين لربه . وهذا هو القياس ، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لايُبنيان إلا من فعل الفاعل ، لا من فعل المفعول ، ذهاباً إلى أنهما إنما يصاغان من الفعل اللازم لا المتعدّى . ونازعهم آخرون وجوزوا بناءهما من الفعل الواقع على المفعول ، لقول العرب : (ما أشغله بالشىء) .

إلى أن قال: والمقصود أنه ﷺ سمى محمداً وأحمد. لأنه يحمد أكثر مايُحمد غيره، وأفضل مما يحمد غيره . فالاسمان واقعان على المفعول ، وهذا هو المختار . وذلك أبلغ فى مدحه، وأتم معنى . ولو أريد به اسم الفاعل لسمى (الحمّاد) وهو كثير الحمد ، كما سمى محمداً ، وهو المحمود كثيراً . فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمداً لربه . فلو كان اسمه باعتبار الفاعل ، لكان الأوْلَى أن يسمّى حماداً ، كما أن اسم أمته الحامدون. وأيضاً فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التى لأجلها استحق أن يسمّى محمداً وأحمد ، فهو الذى يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة ، ويحمده أهل السموات والأرض . فلكثرة خصائله التى تفوت عدّ العادّين سمى باسمين من أسماء الحمد ، يقتضيان التفضيل والزيادة فى القدر والصفة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ »أى: لاأحد أظلم وأشد عدواناً ممن يدعى إلى الإسلام الظاهر حقيقته، المسعد له فى الدارين، فيستبدل إجابته

بافتراء الكذب ، واختلاقه على الله . وذلك قوله لكلامه تعالى (سحر) ولرسوله (ساحر) وهذه الآية إما مستأنفة لتحقيق رسالة النبيّ ﷺ ، طليعة للآيات بعدها ، وإما متممة لما قبلها ، لتقبيح ما بهت به الإسرائيليون عيسى عليه السلام ، مع الإشارة بعمومها إلى ذم كل من كان على شاكلتهم . ولا يقال (الإسلام) يؤيد الأول ، لأنه عنوان الملة الحنيفية ، لأنه قد يراد به معناه اللغوىّ . وقد كثر ذلك فى آيات شتى . نعم الأقرب الأول . واحتمال مثل الآية لهذين الوجهين ، من بدائع التنزيل .

«وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» أى : الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بما أنزل من الحق.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ)

«يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ) قال ابن جرير[1] . أى يريد هؤلاء القائلون لمحمد ﷺ هذا ساحر ، ليبطلوا الحق الذى جاء به بقولهم إنه ساحر ، وما جاء به سحر ، والله معلن الحق ، ومظهر دينه ، وناصر رسوله على من عاداه ، فذلك إتمام نوره . انتهى .

و(نور الله) استعارة تصريحية لدينه ، و (الإطفاء) ترشيح ، أو التركيب استعارة تمثيلية . مثلت حالهم فى اجتهادهم فى إبطال الحق ، بحال من ينفخ فى نور الشمس بفيه ليطفئه ، تهكماً وسخرية بهم ، كما يقول الناس : هو يطين عين الشمس . والثانى أبلغ وألطف ، وهو مختار الزمخشرىّ .

وفى لام (ليطفئوا) مذاهب للنحاة مقررة فى المطولات ، ومن أشهرها أنها مزيدة لتأكيد معنى الإرادة ، لما فى لام العلة من الإشعار بالإرادة والقصد .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ)

«هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ» يعنى محمداً ﷺ « بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ » قال ابن جرير[1]: أى على كل دين سواه. وذلك عند نزول عيسى بن مريم، وحين تصير الملة واحدة ، فلا يكون دين غير الإسلام .

وقال الزمخشرىّ : أى ليعليه على جميع الأديان المخالفة له . ولعمرى لقد فعل، فما بقى دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام . وتقدم فى آخر سورة الفتح فى مثل هذه الآية تحقيق آخر ، فليراجع .

« وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ » أى لما فيه من محض التوحيد ، وإبطال الشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[١١] (تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٢] (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

[١٣] (وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » أى إيماناً يقينياً لا يشوبه أدنى شك « وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » أى من أهل العلم . أو أنه خير . فإن قيل : إن ذلك خير بنفسه علموا أولا ، وأيضاً أن علمهم محقق ، إذ الخطاب مع المؤمنين . فالجواب ماقاله الناصر : أن الشرط ليس على حقيقته ، بل هو من وادى قوله تعالى[1] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) والمقصود بهذا الشرط التنبيه على المعنى الذى يقتضى الامتثال ، وإلهاب الحمية للطاعة ، كما تقول لمن تأمره بالانتصاف من عدوه : إن كنت حرًّا فانتصر . تريد أن تثير منه حمية الانتصار لاغير . انتهى وقوله تعالى : « يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ، أو لشرط أو استفهام ، دل عليه الكلام تقديره : إن تؤمنوا وتجاهدوا . أو هل تقبلون أن أدلكم يغفر لكم « وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ » أى بساتين إقامة لاظعن عنها « ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » أى النجاء العظيم من نكال الآخرة وأهوالها ، « وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ » أى عاجل . وهو فتح مكة . وهذا يدلّ على أن السورة نزلت قبل فتح مكة بقليل . وكان القصد منها تشجيع المؤمنين على قتال محاربيهم ، والثبات أمامه ، والتحذير عن الزيغ عن ذلك ، والترغيب فى السخاوة ببذل الأنفس والأموال ، فى سبيل الحق ، لإعلاء شأنه ، وإزهاق الباطل .

و (أُخْرَىٰ) مفعول لمقدر معطوف على الجوابين قبله ، وهو جواب ثالث . أى ويؤتكم أخرى أو صفة لمبتدأ مقدّر ، وخبره محذوف ، وهو (لكم) . أى ولكم إلى هذه النعمة المذكورة ، نعمة أخرى عاجلة محبوبة ، وهى نصر من الله لكم على أعدائكم ، وفتح قريب يعجّله لكم .

« وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » أى بنصره تعالى لهم وفتحه . ومن منع من النحاة عطف الإنشاء

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٧٨] .

على الخبر يقول (وَبَشِّرِ) معطوف على (تُؤْمِنُونَ) ، لأنه بمعنى آمنوا. وضعّف بأن المخاطب بـ (تُؤْمِنُونَ) المؤمنون ، و بـ (بَشِّرِ) النبيُّ ﷺ . ثم إن (تُؤْمِنُونَ) بيان لما قبله ، و (بَشِّرِ) لايصلح لذلك . وأجيب بأنه لا مانع من العطف على الجواب ، ماهو زيادة عليه إذا ناسبه . وهذا أولى الوجوه عند صاحب (الكشف) ، كتقدير : أبشر يا محمد ، و (بَشِّرِ) ، وتقدير (قل) قبل (يَـٰٓأَيُّهَا) . وجعل (بَشِّرِ) أمراً بمعنى الخبر ، كما فى قوله : أبطئى أو أسرعى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ، قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ، فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ » أى أنصار الحق الذى أنزله وأمر به، « كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ؟ » أى من معى وجندى متوجّهاً إلى نصرة الله، « قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ » أى ننصر دينه، ومأمر به، وندعو إليه ، ونضحّى لأجله حياتنا، « فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى بعيسى عليه السلام ، ونهضت تدعو إلى ما بُعِثَ به ، وتنشر دعوته ، « وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ » أى برسالته والحق الذى معه ، « فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ » من اليهود والرومان الوثنيين ، « فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ » أى غالبين عليهم بالبراهين الواضحة ، والحجج الظاهرة، والسلطة القاهرة . وفيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الربانىّ لهم ، ما داموا متناصرين على الحق ، مجتمعين عليه ، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين ، كما وقع لسلفهم. اتفقوا فملكوا ، وإلا فإذا تفرّقوا هلكوا .

لطيفة :

ليس التشبيه على ظاهره، من تشبيه كون المؤمنين أنصار الله بقول عيسى، إذ لا وجه لتشبيه الكون بالقول ، بل هو مؤول بجعل التشبيه باعتبار المعنى ، إما على تقدير : قل لهم ، كما قال عيسى، لظهوره فيه، وانصباب الكلام إليه، أو تقدير: كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى : من أنصارى إلى الله ؟

قال الشهاب : فـ (ما) مصدرية ، وهى مع صلتها ظرف . والأصل: ككون الحواريين أنصاراً وقت قول عيسى . ثم حذف المظروف ، وأقيم ظرفه مقامه . وقد جعلت الآية من الاحتباك . والأصل : كونوا أنصار الله حين قال لكم النبىّ : من أنصارى إلى الله ؟ كما كان الحواريون أنصار الله ، حين قال لهم عيسى : من أنصارى إلى الله ؟ فحذف من كل منهما ، ما دل عليه المذكور فى الآخر . وهو كلام حسن . انتهى .